تأثير التعليم القرآني على متعلم اللغة العربية من منظور ابن خلدون.

The impact of Quranic education on learning the Arabic language from Ibn Khaldun's perspective.

أحمـــــد برمـــــــاد*

جامعة محمد الصديق بن يحي -جيجل-
مخبر اللغة وتحليل الخطاب
Bermad.ahmed@gmail.com

تاريخ الإرسال:**2024-03-27** تاريخ القبول: **2024-05-28**

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على جانب مشرق من جوانب الحياة العلمية لابن خلدون، وذلك من خلال بحث مسألة الملكة اللسانية وأساليب تحصيلها واكتسابها، ومدى تأثير التعليم القرآني عليها، خاصة وأنه لاحظ اختلافا بين الامصار في مسألة تقديم التعليم القرآني على تعليم اللغة وذلك بين أهل المغرب والأندلس وأهل المشرق، وفي سياق هذا العرض قدم لنا تصورا فريدا للملكة بوصفها تعبر عن استحكام الفعل في النفس الإنسانية بفعل التكرار والممارسة وهو يقابل الحالة، كما قدم أيضا تصورا متميزا للملكة اللسانية يمكن أن يقارع به ما صاغته اللسانيات الحديثة خاصة ما جاء به تشومسكي (la compétence linguistique)، وعليه فإن هذا البحث يحاول تقديم رؤية ابن خلدون للملكة اللسانية من جهة، ومدى تأثير التعليم القرآني على حصول الملكة من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية:ابن خلدون؛ تعليمية اللغة العربية؛ الملكة اللسانية؛ التعليم القرآني.

Abstract:

The aim of this research is twofold: firstly, to delve into the concept of 'linguistic competence' from Ibn Khaldun's perspective, exploring the methods employed in its acquisition; secondly,to analyze the influence of Quranic education on this competence. Notably, regional differences exist in the prioritization of Quranic education over language education, particularly between the people of the Maghreb and Andalusia, as well as those from the Eastern regions. During this analysis, he introduced his unique view of linguistic competence, which he associates with the embedding of action in the human psyche through repetition. This concept bears resemblance to Chomsky's transformative generative theory. In summary, this research aims to present Ibn

* **المؤلف المراسل**

Khaldun's perspective on linguistic competence and assess the impact of Quranic education on its acquisition.

Keywords: Ibn Khaldun;The teaching of the Arabic language; linguistic competence;Quranic education.

مقدمة:

ليس خافٍ اليوم على الدارسين قيمة الجهد العلمي الذي قدّمه ابن خلدون في حياته الحافلة بالإنتاج العلمي، والحافلة بالأحداث والمواقف، مع كثرة حلّه وترحاله بين حواضر شمال الصحراء الإفريقية، وقد جمع في نفسه اليوم ما يمكن أن نصطلح عليه "العالم الموسوعة"؛ ذلك أنه جمع في مؤلفاته عديد العلوم والمعارف العقلية والنقلية أيضا، وأسس في مقدمته لكثير من العلوم على غرار علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، وأبدى رأيه في كثير من الفنون أيضا من اللغة إلى الفقه، إلى علم الكلام والتفسير والمنطق وغيرها "كان ابن خلدون يحيط كل أعماله بعناية دقيقة، فقد كونته دراسة طويلة راسخة لجميع العلوم التي عرفها العرب إلى عهده، وخبرة مستمرّة بالاضطرابات السياسية التي هي كلّ التاريخ الإسلامي في القرن الثامن الهجري، واضطره مركزه المزعزع دائما –وهو مركز سياسي ينتقل من بلاط إلى آخر- أن يكون جمّ الحذر كثير الوزن لما يقال وما يعمل، لذلك كان مضطرا إلى أن يرى في كل شيء مادة للتأمل وموضعا للاختبار"[1]، وهذا الذي حدث بالفعل فقد أبدى رأيه في كثير من العلوم والفنون، وأبدى معالجة دقيقة لكثير من المسائل المتفرقة في العلوم والمعارف.

ولقد أبدى ابن خلدون عناية قصوى بالفعل التعليمي عامة، وبعملية تعليم اللغة العربية الفصيحة الراقية، أو ما يطلق عليها : الملكة اللسانية، فتناول كثيرا من جوانبها بدءا من تحديد مفهومها، وطرق تحصيلها، واختلاف الأجيال في اكتسابها واختلاف مناهجهم وطرقهم في ذلك، ولم يتوقف عند هذا الحد، بل تناول أيضا المؤثرات الخارجية التي قد تعرقل عملية تحصيلها واكتسابها، ومن ذلك تأثير التعليم الديني القرآني على متعلم اللغة العربية الفصحى العالية ، حيث إننا لاحظنا وقوفه المطول عند هذه المسألة ومعرجا على اختلاف الآراء والمذاهب فيها، مما يجعلنا نسلط الضوء على القضية ؛ أي مدى تأثير تعليم

[1]طه حسين، (1952)، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تر: محمد عبد الله عنان، ط1، مطبعة الاعتماد، مصر، ص33.

الناشئة القرآنَ على تحصيل الملكة اللسانية، ولكننا قبل ذلك سنحدد أولا مفهوم الملكة، والملكة اللسانية وطرائق اكتسابها في زمنه وزمن من سبقه.

1 - اللغة في مقدمة ابن خلدون:

ينظر ابن خلدون إلى اللغة نظرة خاصة فهو يعدها ملكة تشبه غيرها من الملكات التي تستحكم في النفس الإنسانية[1]، وقبل العودة إلى هذا المفهوم الخاص – "الملكة" لأنه مرتبط بالتعليم والاكتساب- نعرج إلى موضع آخر يبدو فيه مفهوم اللغة عنده واضحا حيث يحدها بقوله:" اعلم أنّ اللّغة في المتعارف هي عبارة المتكلّم عن مقصوده. وتلك العبارة فعل لسانيّ ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بدّ أن تصير ملكة متقرّرة في العضو الفاعل لها وهو اللّسان وهو في كلّ أمّة بحسب اصطلاحاتهم "[2]، وإن هذا التعريف المركز يحتوي على مفاهيم في غاية الأهمية يمكن أن نحللها على الشكل الآتي:

اللغة عبارة المتكلم عن مقصوده: أي إشارة إلى الوظيفة الاجتماعية للغة؛ وهي إقامة جسر التواصل بين الفرد وغيره من مكونات المجتمع الإنساني، وقديما عرّفها ابن جني التعريف الخالد في الدراسات التي تروم دراسة مفهوم ووظيفة وبنية اللغة فقال : "حد أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[3]، وقد عبر ابن خلدون عن هذه الوظيفة في موضع آخر حين أشار إلى أن اللغات ترجمان لما في النفوس من مشاعر وأفكار[4].

تلك العبارة فعل لساني: ينبغي أن نوضح في هذا المقام أن ابن خلدون يفرق بين اللغة واللسان؛ فاللسان عنده يعني العضو الفاعل أو الذي ينجز وينطق باللغة، لا ما يقصده الدرس الحديث من مصطلح اللسان بوصفها تلك القدرة الكامنة الإنسانية التي تمكنه من أداء اللغة كظاهرة اجتماعية، وعليه فإنه يقصد باللسان العضو الفاعل للغة والمنتج لها "بحيث يفهم هنا في إطار دلالة الجزء على الكل، من جهة أن اللسان عنصر من عناصر

---

[1] ينظر: عبد الرحمن ابن خلدون،(2004)، مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج2، ط1، دار البلخي، ص 378.

[2] المصدر نفسه، ج2، ص 367

[3] ابن جني، (د ت)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دط، المكتبة المصرية، مصر، ص 750.

[4] ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، 364.

جهاز التصويت، بحيث يحتل اللسان بينها مكانة مهمة في تنويع الأصوات اللغوية وتحقيق الفروق بينها"[1]، وهو ما يؤكده في بقية التعريف بقوله " متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان"، وقد حاول "ميشال زكريا" في كتابه "الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون"[2]ربط عبارة "فعل لساني" بنظرية الأفعال الكلامية وإبراز سبق ابن خلدون في التأسيس للنظرية، إلا أننا نشير بعد توضيحنا لمفهوم الفعل اللساني ومفهوم اللسان عند ابن خلدون إلى أن ابن خلدون لا يقصد مفهوم الأفعال الكلامية الذي استقر حديثا على يد أوستين وسيرل وغيرهم.

وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم: وفيه إشارة إلى الطابع الاجتماعي للغة، والخاصية الاصطلاحية فيها، فهي ظاهرة يتواضع عليها أبناء المحيط اللغوي الواحد، وما اختلاف اللغات صوتيا إلا نتاج هذا الاصطلاح والتواضع، وهو أمر طبيعي جدا لأن " التبليغ والتخاطب يتم بناء على وضع لغوي مشترك (code) بين المتكلّم والمخاطب منبعه المجتمع، ولذلك تتمايز اللغات بين مجتمع وآخر بحسب ما يتم الاصطلاح عليه، وهو أمر طبيعي"[3].

لقد لفت انتباهنا إشارة ابن خلدون المهمة إلى اللغة على أنها ملكة أو كونها من الملكات شأنها شأن الصنائع الأخرى وهو ما يجرنا إلى تحديد مفهوم الملكة بوصفها مفهوما محوريا لإبراز كيفية تعليم اللغة بصفة عامة، لأنه –كما سنرى- يخضع لقانون الملكات في رسوخها.

[1]مجدي بن عيسى، (2010)، اللسان وعلومه في مقدمة ابن خلدون، كتاب الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، العدد1 10، 2010، ص 07.

[2]ينظر: ميشال زكريا، (1987)، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون دراسة ألسنية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ص 13 وما بعدها.

[3]بشير إبرير،(د ت)، دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، دط، مطبعة المعارف، الجزائر، ص 136.

2- الملكة والملكة اللسانية في فكر ابن خلدون:

أ- لغة:

تجمع المعجمات اللغوية العربية على معاني الاستحواذ والتملّك والتمكّن والاستبداد بالشيء في معالجتها لمعنى الأصل اللغوي "ملك" وهذا ما جاء على لسان ابن جنّي "وأما (م ل ك) فهذا أيضا حالها، وذلك أنها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة"[1]، ويقر في موضع آخر في معنى التقليب (م ل ك) بالمعنى الآتي :" الخامس (م ل ك) من ذلك ملكت العجين؛ إذا أنعمت عجنه فاشتدّ ومنه مِلك الإنسان ألا تراهم يقولون: قد اشتملت عليه يدي، وقدرة من المالك على مِلكه، ومنه الملك لما يعطي صاحبه من القوة والغلبة، وأملكت الجارية لأن يد بعلها تقتدر عليها فكذلك بقية الباب كله"[2]، ونفس المعنى تقريبا أقره ابن فارس والفيروزآبادي فالأول قال:" الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة، يقال املك عجينه: قوى عجنه وشدّه، وملكت الشيء قويته، والأصل هذا "[3]،وأما الآخر فقال: " وملكه يملكه ملكا وملكة ومملُكة احتواه، قادرا على الاستبداد به (...) ، وأملكه الشيء وملّكه إياه تمليكا بمعنى ولّى، وفي الوادي مُلْك: مرعى ومشرب وال أو هي البئر يحفرها وينفرد بها "[4]،وهي في مجملها –كما نرى- تشترك في معاني القوة والاستحواذ والتمكّن.

ب- اصطلاحا:

---

[1] ابن جني، المرجع السابق، ص 13.

[2] المرجع نفسه، ص 17.

[3] ابن فارس،(1972)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ص ص 351، 352، مادة (م ل ك).

[4] الفيروزآباذي، (1979)، القاموس المحيط، ج3، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 310، مادة (م ل ك).

تناول الفلاسفة العرب مفهوم الملكة في معرض حديثهم عن النفس الإنسانية وقواها المختلفة، وذلك مما يمكن إدراجه ضمن نظرية المعرفة، ومن بين هؤلاء الفلاسفة والدارسين الذين تناولوا مفهوم الملكة نجد الفارابي (ت 339ه) حيث تناول المفهوم في باب" حدوث حروف الأمة وألفاظها" فأشار إلى أن المعارف المشتركة أسبق ظهورا من المعارف الخاصة، وأن العامة من الناس أعم وأسبق من خواصهم، حيث يقول: " وبيّنٌ أن العوام والجمهور هم أسبق في الزمان من الخواص، والمعارف المشتركة التي هي بادئ رأي الجميع هي أسبق في الزمان من الصنائع العلمية ومن المعارف التي تخص صناعة صناعة منها"[1]، ثم أشار إلى نظرية الاقتصاد في الجهد؛ حيث إن الإنسان يميل دوما إلى الأشياء البسيطة والسهلة وينفر من الجهد والصعوبة " والإنسان إذا خلا من أول ما يفطر عليه ينهض ويتحرك نحو الشيء الذي تكون حركته إليه أسهل بالفطرة، وعلى النوع الذي تكون به حركته أسهل عليه، فتنهض نفسه إلى أن يعلم أو يفكر، أو يتصور أو يتخيّل أو يتعقّل كل ما كان استعداده له بالفطرة أشد وأكثر –فإن هذا هو الأسهل عليه- (...) وأول ما يفعل شيئا من ذلك يفعل بقوة فيه بالفطرة وبملكة طبيعية لا باعتياد له سابق قبل ذلك ولا بصناعة"[2].

وبالتالي فهو يفرق بين الملكة الطبيعية وهي الناتجة عن الفطرة الطبيعية كميل بعض أفراد اللغة مثلا إلى أفعال محددة " الذين هم في مسكن واحد وعلى خِلق في أعضائهم متقاربة تكون ألسنتهم مفطورة على أن تكون أنواع حركاتها إلى أجزاء من داخل الفم أنواعا واحدة، وتكون أسهل عليها من حركاتها إلى أجزاء أجزاء أخر"[3]، وبين الملكة الصناعية أو الاعتيادية؛ التي تعني تكرار فعل من الأفعال حتى يرسخ في النفس فينتقل من العادة إلى الملكة وكأنه فعل فطري من أفعال النفس الإنسانية.

أما المفهوم الدقيق للملكة فإننا نجده عند الجرجاني (ت 816ه) في كتابه التعريفات حيث يقول: "هي صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه يحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال، فإذا

[1] الفارابي، (1990)، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، ط2، دار المشرق، بيروت، ص 134.

[2] م ن، ص ن.

[3] م ن، ص136.

تكررت ومارست النفس لها حتى ترسّخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقا"[1]، ومن هذا التعريف يمكن أن نحدد العناصر الأساسية في مفهوم الملكة:

- الملكة صفة راسخة:أي أن الاعتياد على الفعل يجعله صفة راسخة من صفات النفس الإنسانية وقوة من قواها، وكأنها طبيعية فيها، لا فرق بينها وبين السجايا الأخرى فيها (كالأكل والشراب والمشي وغيرها مما يميز النفس الإنسانية) .
- الملكة صفة مكتسبة: أي ليست فطرية وإنما تحصل بفعل الارتياض والاعتياد وتكرار الفعل وممارسته.
- الملكة ليست هي الحالة: فالحالة بهذا المفهوم هي مرحلة أولى تسبق حصول الملكات، وإنما هي تعبير عن عدم استحكام الفعل في النفس الإنسانية بفل نقص الاعتياد والتكرار، فإن تكرر الفعل تخطى حدود الحالة إلى الملكة، لذلك قال الكفوي: "والملكة تطلق على مقابلة العدم وعلى مقابلة الحال"[2]، وهي صفة غير قارة وغير مستقرة ولا ثابتة في النفس " والحال يختصّ به الإنسان وغيره من أموره المتغيّرة في نفسه وجسمه وصفاته"[3].

وبهذا التصوّر فإن الملكة لا تني أن الفعل طبيعي أو غريزي ، وإنما هي مكتسبة، وطريق اكتسابها يمر من خلال الاعتياد والتكرار والممارسة إلى درجة ينتقل فيها الفعل من مرحلة الحالة إلى مرحلة الملكة، وفيها يستحكم الفعل في النفس الإنسانية فيصير ملكة فيها لا فرق بينه وبين الأفعال الغريزية الأخرى فيها، وقد أخطأ من اعتقد أن الملكة تعني الطبيعة أو الغريزة وإنما هي تشبهها فقط في درجة الاستحكام في النفس لا غير. وهذا المفهوم يجرّنا بطبيعة الحال إلى التساؤل عن كيفية استثمار ابن خلدون لهذا المفهوم في تعريفه للغة وفي حديثه عن تعليمها؟

---

[1] الشريف الجرجاني، (1985)، كتاب التعريفات، دط، دار لبنان، بيروت، ص247.

[2] الكفوي، (1998)، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، إعداد: عدنان درويش، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ص 856.

[3] م ن، ص374.

1.2- الملكة اللسانية عند ابن خلدون:

لم يحد ابن خلدون عن هذا المفهوم في مقدمته حين عرف الملكة في سياق حديثه عن الصنائع والعلوم والتعليم واللغة أيضا حيث يقول:" والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولا ويعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزداد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة"[1].

وقد ربط ابن خلدون هذا المفهوم أي (الملكة) وبين الظاهرة الإنسانية (اللغة) ، حيث يرى أنها من قبيل الصناعات أي الملكات، وبالتالي فإن تحصيلها لا يتم إلا عبر الطريق الذي تحصّل به الصناعات؛ أي عن طريق الاعتياد والممارسة والتكرار حيث يقول: "اعلم أن اللغات ملكات شبيهة بالصناعة؛ إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني"[2]، وقد استثمر هذا المفهوم في تلك الإشارة إلى كيفيه اكتساب الطفل للغة العربية؛ حيث إن عمليه الاكتساب هذه تبدأ من خلال التعرض المباشر للغة من خلال السماع وتكراره، ومن سماع المفردات البسيطة إلى اكتساب التراكيب المعقدة، وبهذا التكرار والتعرض للغة يكتسب الفرد العربية الفصيحة حتى تزول الفروق بينه وبين المتكلم السليقي[3]، وبهذا الوصف فإن الملكة اللسانية عند ابن خلدون تعني رسوخ اللغة في النفس الإنسانية حتى تتخطى حدود الحالة إلى مستوى الملكة، وهو أمر لن يتم إلا من خلال مراحل ذكرها:

- السماع: ويتم من خلال الاحتكاك بأهل اللغة والأخذ عنهم ومشافهتهم، وتمثل أساليبهم وتعابيرهم، وأشكال تصريف الكلام عندهم، وما يجوز من التركيب وما لا يجوز وغيرها من أشكال الاستعمال اللغوي التي تحصّل عن طريق السماع والاحتكاك.

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، 378.

[2] م ن، ص ن.

[3] ينظر: المصدر نفسه،ج2، ص 378.

- التكرار والاعتياد: فإن مجرد السماع فقط لا يكفي لأن تستحكم اللغة في النفس الإنسانية، بل يجب أن يتعدى ذلك إلى التكرار والاعتياد حتى يتخطى الفعل مرحلة الحالة.
- الاستمرارية: فلا بد أن يتم السماع والتكرار لفترات زمنية معينة حتى نضمن ترسخ الفعل.

3 - طرائق تحصيل الملكة اللسانية ودور القرآن في تحصيلها وفق رؤية ابن خلدون:

تبين لنا من خلال العرض السابق هيمنة فكرة الملكة على تصوّر ابن خلدون للعملية التعليمية بصفة عامة وللغة بصفة خاصة، وقد امتدّ هذا التأثير إلى تصوّره لعملية تعليم اللغة العربية للولدان والناشئة، لكنه يميز في هذه العملية بين مرحلتين أساسيتين، مرحلة الفصاحة والسليقة، ومرحلة اللحن وفساد الألسن، ولا شك أن بين المرحلتين اختلاف بيّن في المنهج والطريقة المتبعة في تعليم اللغة وتعلّمها:

أ- مرحلة الفصاحة: (التعليم السليقي):

ونقصد بها الطرق التي تحدّث عنها ابن خلدون في تعليم اللغة العربية للناشئة قبل فساد الألسن بكثرة مخالطة الأعاجم، واتساع رقعة الفتوحات الإسلامية، حيث يقرّ ابن خلدون أن اللسان الحالي مختلف تماما لما جرى عليه من قبل، وقد خصّص فصلا كاملا في مقدمته لهذا الأمر سماه "في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير" وقد ألقى اللوم على النحاة، وأهل صناعة العربية، وسنرجئ الحديث عن هذا الأمر إلى المرحلة الثانية، وأما تعليم العربية في هذه المرحلة فإنه يسير في عملية بسيطة جدا أوجزها في إشارته البديعة التي تتمثل في السماع من أهل الفصاحة سماعا متكررا ومتدرجا، والمقصود بالتدرج في هذا الموضع هو الانتقال المقصود من المفردات البسيطة إلى التراكيب المعقدة، وتكرار هذا الفعل حتى ترسخ اللغة عند المتعلم فيبدو مثل السليقي.[1]

[1] ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص378.

وهو –كما نرى- تصور يهيمن عليه مفهوم الملكة من الاعتياد والتكرار والممارسة وغيرها، وقد نصّ عليه ميشال زكريا حيث يقول: "فحصول ملكة اللسان رهينة بالمعاودة والتكرار المفضية إلى ارتسام المنوال الذي نسجت عليه مواضعات اللغة في مخيلة المتعلّم، بحيث إذا همّ بالخطاب نسج من حيث يشعر ولا يشعر على منوال سننها، والسر في ذلك أن ما تلقّاه وحفظه عند الاستعمال والاختبار وإن ذهب رسمه الحرفي الظاهر من الذاكرة فقد تكيّفت النفس به حتى انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يؤخذ بالنسج عليه"[1].

ب- مرحلة فساد الألسن:

وهي المرحلة المهمة أكثر بالنسبة لهذه الدراسة، وبالنسبة للفترة التي نعيشها، ونقصد بهذه المرحلة ما عده ابن خلدون من أن الملكة قد فسدت بعد القرون الأولى بسبب تآزر مجموعة من الظروف والعوامل أدّت إلى فساد الألسن، وابتعاد الناس عن الفصاحة وأهلها، إلا ان ابن خلدون لا يقطع خيط الأمل في تحصيل الملكة اللسانية التامة للناشئة الذين لم يعيشوا فترات الفصاحة، بل إن تحصيلها ممكن على الرغم من أنه لا يمكننا بلوغ مراتب أهل اللغة و مراتب من لم تسبق إلى ألسنتهم شيء من ملكات أخرى، ولم تختلط ملكاتهم بأساليب أخرى غير عربية.

فلما كانت اللغات من قبيل الملكات كما أسلفنا، أمكننا بالتالي تعلّمها وتحصيلها كما يتم تحصيل العلوم والصنائع الأخرى إذا ما تم الالتزام بقانون تحصيل الملكة، وقواعد رسوخها في النفس بحيث تتعدى مرحلة الحالة إلى الملكة حتى تتمكن من النفس الإنسانية، فتتحول إلى قوة من قواها الذاتية ، وهو ما قرره ابن خلدون في رؤيته العجيبة؛ حيث اقترح تطبيق هذه الرؤية على تعلّم اللغة في فترة فساد الألسن، إذ تتجلى في محاكاة الأساليب العربية الفصيحة، وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام العرب شعرًا ونثرًا، وبعد تكرار الاحتكاك بهذه الأساليب من خلال الحفظ والتكرار والممارسة، تتشكل عند المتعلم ملكة بفعل الحفظ والاستعمال ومحاولة النسج على منوال المحفوظ[2]، يمكن أن نستخلص من خلال هذه المنهجية مجموعة من الإشارات المهمة منها:

[1] ميشال زكريا، المرجع السابق، ص227.

[2] ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 384.

- إن الملكة اللسانية تحصل من خلال حفظ الجيد من كلام العرب المشهود لهم بالفصاحة والبلاغة والبيان، وتمثّل أساليب القرآن والحديث النبوي .
- محاولة النسج على منوال الاستخدام العربي، والتصرّف في الكلام بحسب مجاري العرب في كلامها، وتعزيز هذه الممارسة وتكرارها حتى تتشكل عند المتعلم ملكة تامة.
- لا بد أن تتوفر مع العناصر السابقة (الحفظ والممارسة والتكرار) سلامة الطبع وسرعة البديهة من فهم لطرق التعبير العربية .

وهذا البسط يكشف لنا بطبيعة الحال عن قانون ترسخ الملكات (الاستعداد- الممارسة- التكرار) الذي اتبعه في تعليم اللغة العربية .

4- أثر القرآن الكريم في تحصيل الملكة اللسانية التامة:

في معرض حديث ابن خلدون عن طرائق تحصيل ملكة اللسان العربي في المرحلتين الزمنيتين الفارقتين اللتين ذكرناهما آنفا، أشار إلى قضية في غاية الأهمية وهي مدى اختلاف الأمصار في التعليم، أي اختلافهم في ترتيب المواد التعليمية للمتعلّم، وترتيب القرآن مع كلام العرب والجيد من المنظوم والمنثور، وبقية العلوم الأخرى، وهل تقديم حفظ القرآن على تمثّل وحفظ الأساليب العربية الفصيحة ينتج لنا متعلما متمكنا من ملكة اللسان العربي؟

يبدي ابن خلدون تخوّفه من الانطلاق في تعليم ملكة اللسان العربي من القرآن وحفظه، قبل حفظ الجيّد من كلام العرب وقد قدم قبل هذا طرائق متعددة في هذا الشأن تختلف باختلاف الأمصار:

أ- في إفريقية والمغرب:

يشير بداية ابن خلدون إلى أن حصول ملكة اللسان العربي في المغرب وإفريقية صعب لعاملين أساسيين هما : البعد عن اللسان العربي، والخلل في التعليم:

فأما العامل الأول فقد نصّ ابن خلدون على أن الملكة تحصّل بالتعليم وفق الرؤية التي قدمناها لأنها شبيهة بالصناعة، وأن الأمصار التي تكون بعيدة عن اللسان العربي يكون حصول الملكة فيها أصعب وأشق، وهذا الذي حدث مع أهل إفريقية المغرب؛ إذ إنهم أعرق في العجمة من غيرهم من الأمصار، حيث يقول: "فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم"[1]، ولعلّ هذا الرأي الذي يؤمن به ابن خلدون حين أشار إلى أن تحصيل الملكة صعب إذا سبقتها ملكة أخرى في محلّها، وإن حصّل المتعلم شيئا منها فسيكون قاصرا لا محالة[2].

وأما المبدأ الثاني فيتمثل في ترتيب العلوم والمصادر التي يستعين بها المتعلّم لتحصيل الملكة اللسانية التامة، وقد فرّق ابن خلدون بين منهج أهل المغرب وأهل إفريقية في ذلك؛ فأهل المغرب يقتصرون فقط على تعليم القرآن للصبية ولا يخلطون به شيئا إلى أن يحذق فيه ويفقهه أو ينقطع عنه إطلاقا حيث يقول: "فأمّا أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرّسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة. وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر،

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص390.

[2] ينظر:م ن، ص ن.

أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوزوا حدّ البلوغ إلى الشّبيبة. وكذا في الكبير إذا رجّع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"[1] .

وأما أهل إفريقية فيختلفون بعض الشيء عن أهل المغرب في كونهم يخلطون مع القرآن بعض الحديث، وبعض العلوم، إلاّ أن عنايتهم بالقرآن ودرسه وحفظه أكثر من غيرها[2].

وقد نشأ عن هذه الطريقة المتبّعة في المغرب وإفريقية عدم تحصيل ملكة اللسان العربي، لأن البدء بالقرآن والاقتصار عليه للمتعلّم لا ينشأ عنه بالضرورة ملكة اللسان العربي، ذلك أن البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، ودلّ على ذلك شواهد بعض العجم الذين يحفظون القرآن ويجيدون فيه، ومع هذا لا يحصلون على ملكة في اللسان العربي وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون: " فأمّا أهل إفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة وذلك أنّ القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أنّ البشر مصروفون عن الإتيان بمثله فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها. وليس لهم ملكة في غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللّسان العربيّ، وحظّه الجمود في العبارات وقلّة التّصرّف في الكلام"[3]، وربما كان حظ أهل إفريقية أحسن من أهل المغرب لما أنهم يخلطون مع القرآن بعض الحديث وبعض العلوم، إلا أن ملكتهم قاصرة أيضا[4].

وعليه يرى ابن خلدون أن أهل المغرب وإفريقية بعيدون عن تحصيل ملكة اللغة العربية بالفطرة والسليقة لأن العجمة قد سبقت محل الملكة السليمة، فلا يجتمع معها

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 353.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص 354.

[3] م ن، ص ن.

[4] ينظر: م ن، ص ن.

ملكة أخرى، ولأن منهجم خاطئ- في تصوره- لأنهم يقدّمون حفظ القرآن وتمثل أساليبه والحديث النبوي وعلوم القرآن المختلفة على غيرها من العلوم، ولا يمزجون بينها وبين الأساليب التي تجعل المتعلّم يتذوّق الكلام العربي ويعيه، وبالتالي يقتصر على أساليب القرآن فقط، ولمّا كان البشر مصروفين عن الإتيان بمثل القرآن بناء وصياغة وأسلوبا ، فإن من اعتمد عليه فقط لن يحصّل ملكة في اللسان العربي اعتبارا بما تقدّم ذكره.

ب- أهل الأندلس:

يرى ابن خلدون أن أهل الأندلس أحسن حظا في تحصيل ملكة اللسان، وأفضل منهجا في تعليمه، ومنهجهم في التعليم عامة لا يقتصر فقط على القرآن وحده، وإنما جعلوه أصلا مهما في التعليم، ويخلطون معه رواية الشعر، وحفظ قوانين العربية والخط وغيرها من العلوم "وأمّا أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الّذي يراعونه في التّعليم. إلّا أنّه لمّا كان القرآن أصل ذلك وأسّه ومنبع الدّين والعلوم جعلوه أصلا في التّعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشّعر في الغالب والتّرسل وأخذهم بقوانين العربيّة وحفظها وتجويد الخطّ، والكتاب لا تختصّ عنايتهم في التّعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخطّ أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشّبيبة وقد شدا بعض الشّيء في العربيّة والشّعر والبصر بهما، وبرّز في الخطّ والكتاب، وتعلّق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم"[1].

فهذا هو منهجهم في التعليم بصفة عامة، وقد انعكس عليهم إيجابا في تحصيل ملكة اللسان العربي، لذلك كانوا أحسن حظا من أهل المغرب، لأنهم لا يعتمدون فقط على القرآن، وإنما يمزجون ذلك بأساليب البلغاء من العرب، وشعرهم وخطبهم وأمثالهم، فيتكوّن لدى المتعلّم ملكة بكثرة الاحتكاك بهذه الأساليب سماعا وممارسة وتكرارا بحسب

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 353.

قانون الملكة المذكور وفي هذا الشأن يقول:" وأهل الأندلس أقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا "[1].

وبهذا السرد الذي قدّمه ابن خلدون يبدو أن أهل الأندلس أحسن حظا من أهل المغرب وإفريقية في تحصيل اللسان العربي لأنهم خلطوا تعليم القرآن بالجيد من كلام العرب شعرا ونثرا، فقد تجلّى هذا التحصيل في أنهم كانوا أهل شعر وأدب وبيان، إلا أنهم بالمقابل كانوا قاصرين في بقية العلوم والمعارف لأنهم كانوا بعيدين –نوعا ما- عن مدارسة القرآن وعلومه ولم يتفرّغوا له كل التفرّغ كما كان أهل المغرب الذين برعوا في حفظه ورسمه، وبرعوا أيضا في العلوم المتعلقّة به.

ج- أهل المشرق:

لا يعلم ابن خلدون تحديدا بم كانت عنايتهم؛ أبالقرآن حفظا ودراسة وعلومه دراسة وتمحيصا، أم بكلام العرب وأشعارهم وأمثالهم، إلا أنه يجزم بأنهم كانوا يخلطون في التعليم كما كان أهل الأندلس يفعلون[2].

لكنه يذكر في موضع آخر حالهم وحال الملكة السليمة فيهم، إذ إنهم كانوا أهل بلاغة وأدب وفصاحة أيام الدولة الأموية والعباسية، فكان شأنهم كشأن أهل الأندلس في تمام الملكة ورسوخها، فلما انفتحوا على الأعاجم، وصار أمر الدولة لهم –أي الأعاجم- استولت العجمة على اللسان العربي في المشرق[3]

وبالتالي فقد غابت الآليات التي يتم بها تحصيل الملكة اللسانية السليمة وهي: التعليم السليم القائم على المزج بين القرآن وبين كلام العرب، والتعليم السليقي العفوي الذي

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 390.

[2] ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص 354.

[3] ينظر: م ن، ج2، ص ص 391، 392.

يشترط فيه صفاء البيئة اللغوية ونقاؤها، وهما العنصران اللذان كانا غائبين في المشرق في الفترات الزمنية التي ذكرها ابن خلدون.

وعليه يبدو موقف ابن خلدون من هذه المسألة واضحا، فهو يرى أن الاقتصار فقط على القرآن وتعليمه للصبية والناشئة لا ينتج لنا متعلّما متمكنا من ملكة اللسان العربي مطلقا، لأن البشر مصروفون عن محاكاة أساليبه وتعابيره، ولما كان حصول الملكة اللسانية في نظره يمر عبر مراحل وقوانين على رأسها الممارسة والاستماع والتكرار والاستعداد الفطري الجيّد، كان أنسب طريق لتحصيل الملكة برأيه هو مزيد احتكاك بالأساليب البليغة والفصيحة شعرا ونثرا وقرآنا أيضا، وإن كان يفضّل عدم الانطلاق من النصّ القرآني، وذلك حتى تتهيأ للمتعلّم نفس الظروف التي تهيّأت للعربي أيام الفصاحة والسليقة، أين كان في احتكاك مستمر ودائم مع الأساليب البليغة والفصيحة.

وقد استحسن لهذا ابن خلدون رأي القاضي أبي بكر بن العربي الذي رأى ضرورة تقديم تعليم العربية والشعر والنثر وفنونه سائر العلوم والفنون، ثم بعدها ينتقل إلى علوم القرآن والفقه وغيره، كما نهى عن الجمع بين أكثر من علم في المرحلة التعليمية الواحدة وهو ما استحسنه ابن خلدون، وقد وافقه في كلّ هذا، إلا أن ابن خلدون قد اصطدم بعوائد أهل المشرق والمغرب في حرصهم على تعليم الولدان القرآن في صباهم خشية أن يبلغوا الحلم وهم لم يأخذوا منه شيئا، فلا يتحكمون فيهم ولا يستطيعون إلزامهم به؛ لأنهم كبار راشدون، فيذهبون وصدورهم خالية من القرآن، ولو أمن ابن خلدون وغيره من هذا الأمر (أي عدم ترك تعلم القرآن من طرف الولدان إذا شبوا) لكان المنهج الذي ذكره القاضي أبو بكر بن العربي أحسن منهج وأفضل لتحصيل الملكة اللسانية [1] .

خاتمة:

[1] ينظر : ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص355.

قد تبيّن لنا من العرض السابق موقف ابن خلدون من التعليم القرآني، وأثر هذا التعليم على تحصيل الملكة اللسانية السليمة، وقد تبدّى لنا أن ابن خلدون يتمثّل رأي القاضي أبي بكر بن العربي في ضرورة تأخير التعليم القرآني إلى فترة لاحقة من التعليم إذا أمن عدم انقطاع المتعلّم عن التعليم جملة، وتقديم تعليم الأساليب العربية الفصيحة شعرا ونثرا وقوانين العربية وغيرها مما يهيئ المتعلّم لأن يعيش مرحلة الفصاحة والسليقة.

كما لا يفوتنا في هذا القام أن نلفت عناية الدارسين والمختصّين والمهتمين بفكر العلامة ابن خلدون، إلى أن مفهوم الملكة مفهوم محوري في مقدّمته، حيث استثمره للتعبير عن كيفيات تمثّل العلوم والفنون والصنائع، وهو مفهوم قائم على الاستعداد الفطري للمتعلّم والممارسة والتكرار للفعل حتى يتخطّى مرحلة الحالة سريعة الزوال، ليرقى إلى مرحلة يتحوّل فيه الفعل إلى قوة من قوى النفس الإنسانية لا فرق بينه وبين القوى الغريزية ، وهو أمر لن يتحقق إلا بالدربة والممارسة والتكرار والمعاناة مع الفعل.

وعموما يمكن القول إن نظرة الرجل إلى تأثير التعليم القرآني على تعليم اللغة نظرة متميّزة وفريدة في الآن نفسه تحتاج من الدارسين مزيد نظر وتثبّت، ومن القائمين على شؤون التعليم والعربية في بلادنا مزيدا من المراجعة والتمحيص علّنا نجد في ما قاله الرجل ما ينفع جيلنا وأجيال المتعلّمين اللاحقين، ويمكننا من تخطّي هذا الخليط الهجين من اللسان الذي نعبّر به، ليس فقط في حياتنا اليومية وإنما في مستويات سامية وراقية أحيانا. والله الموفّق.

مراجع البحث:

1. بشير إبرير،(د ت)، دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي، دط، مطبعة المعارف، الجزائر.
2. ابن جني، (د ت)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دط، المكتبة المصرية، مصر.
3. الشريف الجرجاني، (1985)، كتاب التعريفات، دط، دار لبنان، بيروت.

4. طه حسين، (1952)، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تر: محمد عبد الله عنان، ط1، مطبعة الاعتماد، مصر.
5. عبد الرحمن ابن خلدون،(2004)، مقدمة ابن خلدون، تح: عبد الله محمد الدرويش، ج2، ط1، دار البلخي.
6. الفارابي، (1990)، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، ط2، دار المشرق، بيروت.
7. ابن فارس،(1972)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ط2، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
8. الفيروزآباذي، (1979)، القاموس المحيط، ج3، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
9. الكفوي، (1998)، الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، إعداد: عدنان درويش، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.
10. مجدي بن عيسى، (2010)، اللسان وعلومه في مقدمة ابن خلدون، كتاب الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، العدد1 10، 2010.
11. ميشال زكريا، (1987)، الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون دراسة ألسنية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.